سوسيولوجيا الغزل العذري

م. ضياء غني لفته
جامعة ذي قار /كلية التربية / قسم اللغة العربية

الغزل العذري فن شعري قديم يمتد في أصوله إلى عصر ما قبل الإسلام ، فقد ظهر شعراء وصفهم الرواة القدماء بأنهم من عشاق العرب وكانت تجاربهم مشابهة لشعراء الغزل العذري ، ومنهم عبد الله بن العجلان الفهري وصاحبته هند ، والمرقش الأصغر وصاحبته فاطمة ، ومالك بن الصمصامة وجنوب وعمرو بن كعب وعقيلة ، وعنترة بن شداد وصاحبته عبلة (١) . ووردت عن هؤلاء قصص تعكس الحب النبيل الصادق كما في قصة المرقش الأكبر ، التي يمكن أن تعد نموذجا لكثير من قصص العشاق (٢).

ويظهر في شعر هؤلاء التعبير عن حرمان العاطفة والشكوى والألم ، واثبت الشعراء بأنهم لم يكونوا طلاب متعة فقط ، بل صوروا حياء المرأة وعفتها ، فالشنفري الشاعر الصعلوك يعجب بأخلاق محبو بته وحيائها بقوله:

لقد أعجبتني لا سقوطا" قناعها
إذا ما مشت ولا بذات تلفت
كان لها في الأرض نسيا تقصه
على أمها وان تكلمك تبلت

(٣)

وهذا السليك اكثر صراحة ، فلا يحب إلا المرأة المصونة ذات الحياء إذ يقول :

لعمر أبيك والأنباء تنمـــي
لنعم الجار أخت بني عوارا
من الخفرات لم تفضح أباهـا
ولم ترفـــع لأخوتها شنارا
يعاف وصال ذات البذل قلبي
ويتبع المنعمـــة النـــوارا

(٤)

هذه الأبيات تؤكد الترفع في العاطفة ، والتسامي في الفعل ، بل إن شعراء الغزل عاشوا تجارب لا تختلف في تفاصيلها عن شعراء الغزل العذري.

ومن اجل معرفة الجذور النفسية والاجتماعية لظهور مثل هذا الغزل نقول: أن مجيء الإسلام أحدث تغييرا كبيرا، وردة فعل كبيرة في حياة العرب، فقد كان العرب يعرفون فكرة القبيلة وتربطهم رابطة الدم مع بعضهم ، فإذا جنى أدهم جناية، انتفضت القبيلة للأخذ بالثأر، فلما جاء الإسلام أخذ يحل محل القبيلة فكرة الأمة،قال تعالى((كنتم خير أمة أخرجت للناس))(آل عمران: ١١٠) الأمة التي تدين إلى القانون الإلهي ، وقد وضع القرآن ضربا من العدالة الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية للناس. فإذا هم أمة واحدة لافرق بين أبنائها إلا في التقوى ،هذا من جانب ،ومن جانب أخر نجد ردود فعل نفسية عنيفة كان يعيشها العرب اثر مجيء الإسلام ، وقيام دولة موحدة يخضع العرب لقوانينها . وآية ذلك أن أبا خراش الهذلي يرثي أخاه أوابن عمه زهير ابن العجوة يوم حنين، فلم يفعل شيئا سوى رثائه له وتفجعه عليه، وتنويه بشمائله من كرم وشجاعة وإكرام ضيف، بل انه صرح بأنه غير قادر على المطالبة بثأره لتغير الظروف وقوانينها(٥) حتى ليشبه قواعد الدين الجديد وحدوده بالسلاسل التي تحيط بالرقاب:

فليس كعهد الدار يا أم مالك
ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل
سوى العدل شيئا فاستراح العواذل

(٦)

فالشاعر يلوذ بالصبر. وكان تميم ابن أبي مقبل من الشعراء الذين دخلوا الإسلام، ويبدو انه لم يحرج من إعلان حنينه إلى الجاهلية يقول ابن سلام انه كان ((جافيا في الدين وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية ويذكرها)) فقيل أتبكي أهل الجاهلية وأنت مسلم . فقال:

ومالي لا ابكي الديار وأهـــلها
وقد زارها زوار عك وحميرا
وجاء قطا الأجباب من كل جانب
فوقـــع في أعطافها ثم طيرا

(٧)

ولعل دراسة قصيدة متمم بن نويرة ((العينية)) يظهر لنا فيها أثر البادية والبعد عن تأثرها بالإسلام، بل هي سائرة على نهج قصائد ما قبل الإسلام في لغتها وتشبيهاتها ومعانيها ، ولولا ما هو معروف عن مقتل مالك أخي متمم لقلنا أنها قيلت في عصر ما قبل الإسلام بسبب انقطاعها عن العصر الإسلامي ولعل هذه النماذج وغيرها(٨) ، تعبر عما أحدثه الإسلام من تغيير في بنية المجتمع العربي ومن ثم التعبير عن معاني تعكس موقف عام من الحياة، تجاوز معانيها إلى رموز اجتماعية ونفسية تعكس حال المجتمع.

ولهذا نجد الشعراء العذريين في العصر الأموي أكثر ارتباطا بعالم البداوة ورفضا للحضارة، وان الحديث عن الحب في الغزل العذري يعبر عن معان أكثر شمولا من الحب، انه موقف عام من الحياة.

ولقد لفتت هذه الحركة الشعرية انتباه الدارسين ، وحاولوا أن يعللوا ظهورها، فأرجعوها إلى أسباب عديدة ، سياسية ، واجتماعية، واقتصادية وحضارية(٩). لقد ظهر الغزل العذري اثر انقسام المجتمع إلى طائفة الفقراء والمحتاجين، ومن أراد الأمويون لهم الإذلال والاستسلام: ولذا فأن التفسير السياسي الاجتماعي اقرب إلى تفسير الغزل العذري، فالحجازيون عزلوا عن الخلافة يوم انتقلت إلى الكوفة، وازدادوا عزلة يوم انتقلت إلى الشام ، وقد تعمد معاوية إضعاف الحجاز سياسيا وعزله عن العالم الإسلامي ، وعندما وقفوا ضد بيعة يزيد ، شدد معاوية الخناق عليهم فقاسوا الحرمان والفقر وقسوة الولاة،ولعل ترحيبهم بالدعوة الزبيرية لم تعوضهم ما خسروه ، بل انهم لاقوا الويلات على يد قائد جيوش عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي. وبهذا تعرض الحجاز إلى العزلة والاضطراب فضلا عن القهر والغلبة وضيق المعيشة والقلق والنظرة التشاؤمية السوداوية للحياة. فجاء الغزل العذري كرمز للارتباط بالواقع البدوي والشعور بالضيق من المجتمع ورفض السلطة.

فالشاعر المجنون يقول :

ألا ليتنـــا كنا غزالين نرتعي
رياضا من الحوذان في بلد قفـــر
ألا ليتنـــــا كنا حمامي مفازة
نطير ونأوي بالعشي إلى وكـــر
ألا ليتنا حوتان في البحر نرتمي
إذا نحن أمسينا نلجج في البحـــر
(١٠)

ويقول كثير:

ألا ليتنـــا يا عز كنا لذي غنى
بعيرين نرعى في الخلاء ونعـــــزب
كلانا به عز فمن يرنا يقـــل
على حسنها جر باء تعدي وأجرب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله
علينا، فما ننفك نرمي ونضـــرب
(١١)

نلمس في هذه النصوص الرفض للمجتمع ومحاولة الهرب منه، من خلال هذه الأمنيات الشاذة والقاسية،فلم يجد الشاعر أمامه غير القفار يأنس بها، فالحياة عبئ ثقيل ينؤ بحمله.وهذا يعني أن الشعراء في محاولة جادة للتخلص من قيود المجتمع ، والعيش وحدهم ، كما كان يعيش الشاعر الجاهلية، الذي لا تحكمه إلا قيم القبيلة، فهو رفض مبطن للواقع، بعد أن وجدت القبيلة نفسها مندمجة في جماعة واسعة إلى حد كبير، ورأت أن دورها بدأ يتضاءل، واختفت شخصية شيخ القبيلة ، وبالمقابل ظهرت شخصية النبي (صلى الله عليه وآله) والخليفة والوالي وغيرها من الشخصيات الأخرى التي لم تكن موجودة من قبل ، وربما كان للسلطة تأثير في نفسية العربي وعند البدو الذين يسكنون الصحراء. ومما يؤكد ذلك محاولة الردة عن الإسلام ، فبمجرد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله) ارتدت بعض القبائل عن الإسلام ، وكأنها شعرت بتحررها من سلطته ، بل إن الرسول (صلى الله عليه وآله) قد وجد في البدو معارضة شديدة عبر عنها القرآن الكريم فوصفهم بأنهم اشد كفرا.

وقد ظل الأعراب ممن دخلوا في الإسلام على ما نشأوا عليه من قيم ، لم تتح لهم الفرصة لتذوق النظام الجديد الذي جاء به الإسلام ، فلذلك لم يستطيعوا أن ينسوا وطنهم الأول الصغير، والانضمام تحت سلطة مركزية جديدة تدير شؤون الأمة الإسلامية. ولم يكن الأعرابي يحمل لهذا الوطن الجديد شيئا من الحب أو التقديس ، وكل الذي فهمه أن قريشا قد فرضت سياستها على القبائل الأخرى ، وكان أثقل شيء عليه الأموال التي فرضها الإسلام ، وسماها الزكاة _ إذا صرفنا النظر عن حقيقتها الروحية وأثرها في النفس _ ونظروا على أنها نوع من الضرائب التي يدفعها الأفراد للدولة ، مقابل حمايتهم وتدبير شؤونهم ، ولكن البدوي لم يفهم هذا الوطن الجديد ، ولم يعرف شيئا عن الأمة (١٢) ، فلم يستطع العرب التحرر من سلطان العصبية القبلية ، وقد أوجدت فيهم هذه الروح نزعة دائمة إلى التمرد على السلطة ومعارضة أي نظام قائم كلما تراخت قبضة اليد الحاكمة (١٣) .

من هنا لا يمكننا النظر إلى تجربة الغزل العذري بمعزل عن الإطار التاريخي ، فالشعراء عاشوا تجربة واحدة متشابهة في تفاصيلها إلى حد

كبير ، وهي تجربة ظهرت في رفض المجتمع الجديد وما يتضمنه من سياسة وتعلق بالمجتمع البدوي ((فالحنين إلى الأمكنة والأزمنة الماضية يمكن أن يتجاوز في هذا الشعر حدود التجربة الذاتية إلى الشعور الحضاري للإنسان العربي في تذبذبه بين ماضيه وحاضره حينذاك)) (١٤) ،فأسماء الأماكن كثيرة في الغزل العذري ، غير أن قيمتها لا تكمن في دلالتها الجغرافية بقدر ما تكمن في دلالتها النفسية وما تخلفه في النفس من اثر عميق ،
يقول جميل :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادي القرى إني إذن لسعيد
وهل اهبطن أرضا تظل رياحها
لها بالثنايا الغاويات وئيـــد
(١٥)

وقول الشاعر :

أقول لصاحبي والعيس تهوى
بنا بيـــن المنيفـــة فالضمار
تتمتع من شميم عرار نجـــد
فما بعد العشية من عـــرار
ألا يا حبذا نفحات نجـــد
وريا روضـــة غـــب القطـــار
(١٦)

وذكر الأماكن تؤلم الشاعر وتؤرقه ، فيكون ذكرها استرجاع للزمن المفقود ، يقول جميل :

ولما علوت اللابتين تشوقت
قلوب إلى وادي القرى وعيون
(١٧)

فهذه فلاماكن يلجأ إليها الشاعر أملا في أن يفرغ ما في نفسه من مكنونات شعورية من النصوص التي تكاد تذوب لرقتها في الحنين إلي البداوة . وقد عبر الشعراء عن القيود التي فرضت عليهم وشعورهم بالقمع والعزلة ، برغبتهم بورود الماء وعدم استطاعتهم ذلك لوجود الحواجز التي تحول دون ذلك كقول جميل :

وما صاديات حمن يوما وليلـــة
على الماء يغشين العصى حواني
لو اغب لا يصدرن عنه لوجهة
ولاهن من بـــرد الحياض دواني
يرين حباب الماء والمـــوت دونه
فهن لاصـــــوت السقاة رواني
بأكثر منـــي غلـــة وصبابـــة
إليك ولكـــــن العـــدو عداني
(١٨)

وهي صورة تقترب من الخيبة في الحياة وتمثل شعور المجتمع بوجه عام . وان قرار المنع موضوع يتيح للشاعر العذري ان يشكو مستعرضا آلامه يصوغها في أبيات تحمل في ثناياها بعدا سياسيا . ويقول المجنون :

و أصبحت من ليلى الغداة كقابض
على الماء خانته فروج الأصابع
(١٩)

و أشاروا إلى بخل الحياة وشحتها من خلال بخل من يحبون ،يقول كثير :

وان تبخلي يا ليل عني فأنني
توكلتي نفسي بكل بخيل
(٢٠)

مما حدا بهم الرضا بالقليل تبلغ حد الزهد والتصوف (٢١) فهو لا يجد غير عالم الأحلام يعزي به نفسه أو عالم الوهم يشغله عن التفكير في الواقع المأساوي .
يقول المجنون :

و إني لأهوى النوم في غير حينه
عل لقاء في المنام يكون
(٢٢)
ويقول جميل :

أقلب طرفي في السماء لعله
يوافق طرفي طرفكم حين ينظر
(٢٣)
معبرين عن حزن غائم يطبع حياتهم .

وكان للوشاة أحاديث في أخبار العشاق بعد أن ضيقوا على الشعراء الخناق وتابعوهم – كما يتصور الشعراء– في كل مكان وافسدوا كل لقاء ، وأضاعوا كل فرصة للحديث ، ليوضح تلك القيود التي ضاق بها البدوي ذرعا ، يقول جميل مصرحا بحبه رغم الوشاة ولا يهمه من ذلك إلا بثينة كرد فعل للقسوة المتسلطة ، يقول جميل :

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا
سوى أن يقولوا أنني لك وامق
نعم صدق الواشون أنت كريمة
علينا وان لم تصف منك الخلائق
(٢٤)

فاقترن الحب بالموت ، وأضحى قرين الفقد التام:

لقد عشت من ليلى زمانا احبها خا
الموت إذ بعض المحبين يكذب
(٢٥)

مما دفعهم إلى تمني الموت كرفض للمجتمع وتحد للسلطة ، فالموت يغل فمه قبل أن يعبر عما في نفسه ، فهو يرتاح إلى الموت لأنه أخف وطأة من الحرمان فيؤثر الموت ، يقول جميل :

يا ليتني ألقى المنيـــة بغتـــة
إن كان يوم لقائكم لم يقدر
لا تحسبي إني هجرتك طائعا
حدث لعمرك رائع أن تهجري
(٢٦)

فالموت يحقق له الطمأنينة ، وربما كان وراء هذه الطمأنينة إيمان الشاعر بأن الموت ميلاد جديد . وتظل الحيرة في نفوسهم من خلال الأسئلة التي لا تجد جوابا لترمز إلى القلق والحياة المبهمة :

كيف السبيل إلى ليلى وقد حجبت
عهدي بها زمنا ما دونها حجب
(٢٧)

ولا ريب أن استخدام صيغ الاستفهام أو السؤال وليدة حيرة في النفس تدفع صاحبها إلى الخروج من الكلام الخبري إلى أسلوب إنشائي عنيف ، يقول جميل :

فهـل في كتمـان حبي راحـة
وهل تنفعني بوحة لو أبوحها
(٢٨)

فالشاعر لا ينتظر الجواب عن سؤاله ، لما يعرفه من تعذر الراحة وتحقيق الاطمئنان ، وهو لا يستفهم لمجرد السؤال وإنما لإظهار الشكاية ودوام العذاب . فهناك إحساس بالقهر الاجتماعي في العصر الأموي الذي مارس التغريب على روح الفرد ، فكان الشعر العذري احتجاجا على القهر الاجتماعي ، وتمسكا بالحياة البدوية . ومن اللمسات الفنية التي نجدها في الغزل العذري التكرار الذي يرمز إلى التشبث بحياتهم السابقة . يقول المجنون :

أيا حب ليلى داخلا متولجـــــــا
شعوب الحشا ، هذا علي شديد
ويا حب ليلى عافني قـــــد قتلتني
وكيف تعافيني وأنت تزيـــــد
ويا حب ليلى اعطني الحكم واحتكم
علي فما تبغي علي شهـــــود
(٢٩)

(والتكرار في حقيقته ، إلحاح على جهة هامة في العبارة يعنى بها الشاعر اكثر من عنايته بسواها)(٣٠) فإلحاح الشاعر على عبارة (يا حب ليلى) يدل على التعلق بالمحبوبة ، إذ عرفنا أن من معاني المرأة السكن والالتجاء والاحتماء والانتماء.
نقول إن وراء الغزل العذري رموز أبعد من العاطفة والحب ، رموز تشير إلى حالة الانتقال والانفصال عن مجتمع البداوة ، إلى مجتمع
جديد لم تكن فيه الدولة الأموية سليمة كل السلامة وان التجربة الحزينة في القصيدة العذرية لاتصف ذات صاحبها المعذب فحسب ، بل تحاول أن تصور ملامح الواقع الاجتماعي والسياسي الذي نشأت فيه وأثر فيها وبخاصة بقاء رنة الألم والحزن واضحة في نصوصها (٣١)

الهوامش:

١- ينظر على سبيل المثال : الأغاني ٣٣٨/٢٢ و ٨٢/٢ -٨٣ و ١٠٢/١١ والشعر والشعراء :٥٦
٢- ينظر المفضليات :٢٠٦/١
٣- الديوان :٨١
٤- السليك بن السلكة أخباره وشعره :٥٥
٥- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي :٢٥٤
٦- ديوان الهذليين : ١٥٠/٢
٧- طبقات فحول الشعراء : ١٥٠/١
٨- ينظر ديوان الهذليين : ١٥٧/٢ ،١٧١ ، الأغاني ١٣-١٢/١٣ ومنهم من بكى صروف الدهر ن والتحسر على عهد مضى أو الاشتياق إلى شرب الخمرة ، ينظر : تاريخ الطبري ٥٦٦/٢ و ٦٠٩/٢ .
٩- تطرق د. عبد القادر القط إلى هذه الأسباب مشيرا إلى آراء النقاد ينظر : في الشعر الإسلامي والشعر الأموي : ٧٢ وما بعدها .
١٠- الأغاني : ٢٥٠/١
١١- الأغاني : ٧٠/٢
١٢- ينظر : الهيجاء والهجاءون في صدر الإسلام :٧
١٣- ينظر : العصبية القبلية و أثرها في الشعر الأموي : ١١٨
١٤- ينظر في الشعر الإسلامي والأموي : ١١٢
١٥- الديوان : ٤٤
١٦- الأمالي : ٣٢/١ لشاعر غير معروف
١٧- الديوان : ١٥٧ و ١٧٧ ، ١٨٠ وينظر : تزيين الأسواق في أخبار العشاق : ١١٠/١
١٨- الأغاني :٢٢٠/٩
١٩- نفسه :٨٥/٢
٢٠- نفسه :٢٣٥/٩

٢١- ينظر في الشعر الإسلامي والأموي :١٠٢
٢٢- الأغاني : ٢٤٦/١ ، وينظر : تزيين الأسواق في أخبار العشاق : ١٢٧/١

٢٣- نفسه : ٢٥٥/٩ ، وينظر : ديوان جميل ٣٥
٢٤- الديوان : ٨٤ ، وينظر : الأغاني ١٤٨ و٢٢٣/٩ و ٢٣٣ و ٢٣٧
٢٥- الأغاني : ٥١/٢
٢٦- الديوان : ١٠٨ وينظر : ٢٢٠
٢٧- الأغاني : ٦٢/٢
٢٨- الديوان : ٥١ وينظر ٢١
٢٩- نفسه : ١٢/٢ وينظر : ٢٢/٢ و ٢٢و٢٦و٣٨و٣٩و٦٧
٣٠- قضايا الشعر المعاصر: ٢٤٢
٣١- المرثاة الغزلية في الشعر العربي :٣٤

قائمة المصادر :

- القرآن الكريم
- الأغاني ،أبو الفرج الأصفهاني ، دار الفكر _ بيروت ، ط٤ ، د.ت .
- الأمالي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ، تحقيق : صلاح بن منجى والشيخ سيد عباس الجليمي ، المكتبة العصرية – صيدا ، ٢٠٠٢ .
- تاريخ الطبري ، مطبعة الاستقامة ١٣٥٧.
- شرح د. عبد المجيد زراقط دار الهلال _ بيروت ٢٠٠١.
- تزيين الأسواق في أخبار العشاق ، داو ود الأنطاكي ، دار الهلال _ بيروت ٢٠٠٣ .
- ديوان الهذليين ، دار الكتب المصرية القاهرة ،١٩٤٨.
- السليك بن السلكة أخباره وشعره ، تحقيق ، حميد آدم ثويني ، كامل سعيد ، بغداد ، ١٩٨٤ .
- شعر الشنفري الأزدي ، أبو فيد مؤرج بن عمر السدوسي ، تحقيق : علي ناصر غالب ، مركز دراسات الخليج العربي _ البصرة ، ١٩٩٣.
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، د. يوسف خليف ،دار المعارف مصر ، ط٢ د.ت .
- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مصر ١٩٧٤ .
- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، احسان النص ، دار اليقظة العربية ، د.ت .
- في الشعر الإسلامي والأموي ، د. عبد القادر القط ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩ .
- قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، مكتبة النهضة _ بغداد ، ط٢ ١٩٦٥ .
- المرثاة الغزلية في الشعر العربي د. عناد غزوان مطبعة الزهراء بغداد ، ١٩٧٤.
- المفضليات ، المفضل الضبي ، تحقيق ، د ت عمر فاروق الطباع ، بيروت ١٩٩٨ .
- الهجاء والهجاؤن في صدر الإسلام د. محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧١ .